حوار فلسفي مع الدكتور زكي نجيب محمود

بقلم أحمد ماضي

ليس بخاف على أحد من أساتذة الفلسفة وطلابها وقراء الكتب والمقالات الفلسفية في بلادنا العربية على وجه العموم وفي الجمهورية العربية المتحدة على وجه الخصوص ، أن الاستاذ زكي يعتبر نفسه بصراحة مطلقة نصيرا أمينا للوضعية المنطقية ، وداعية مخلصا لهذا الاتجاه الفلسفي الذي ظهر الى الوجود في مستهل العقد الثالث من قرننا العشرين . ولا تشكل سرا مساعيه الجدية لجعل قرائه ومستمعيه أتباعا لفلسفة المنطق الوضعي . وهو يقول في مقدمة كتابه(١) : « يعد ديفد هيوم أبا لحركة فلسفية تعاصرنا اليوم ونعاصرها وهي الحركة التي يطلق عليها أنصارها « الوضعية المنطقية » حينا واسم « التجريبية العلمية » حينا آخر ، والى هذه الحركة الفلسفية انتمي .. » . وهنا لا بد من طرح هذا السؤال : لماذا صار المفكر المصري منطقيا وضعيا ولم يصبح نصيرا لاتجاه فلسفي آخر من بين المدارس والاتجاهات الفلسفية السائدة في عالمنا المعاصر ؟ ان جواب الدكتور زكي على مثل هذا السؤال نجده في أماكن عديدة من مؤلفاته . فعلى سبيل المثال يقول في مقدمة الطبعة الثانية لكتاب « المنطق الوضعي » : « ان دارس هذا الكتاب اذا ما رضي عما ورد فيه لا بد أن تنتهي به الدراسة الى نظرة علمية تجريبية هي في رأينا شرط لا مفر منه اذا أردنا لانفسنا نهضة فكرية صحيحة » . ان الاستاذ زكي يربط تقدمنا الروحي ، كما يفهم من هذا الاقتباس ، بتبني فلسفة الوضعية المنطقية . وظني ان هذه المدرسة الفلسفية لو سادت في بلادنا وقدر لها الغلبة لرجعنا القهقرى . ذلك أنها تبعد اهتمام الناس عن طرح القضايا والمشكلات التي تواجههم . وأعتقد ان تأخرنا الفكري ، ومن ثم تخلفنا في ميادين الحياة الاخرى من صناعية وزراعية وعلمية الخ .. لا محيد عنه لو تبنى الناس هذا الطراز من التفكير الفلسفي البعيد عن الفلسفة والحياة الانسانية والواقع الموضوعي .

وفي مقدمة الطبعة الاولى لكتاب « المنطق الوضعي » يجيب المفكر المصري على التساؤل المطروح سابقا بحجج شبيهة بما ورد في الاستشهاد الوارد الذكر . فهو يقول : « ولما كان المذهب الوضعي بصفة عامة ـ والوضعي المنطقي الجديد بصفة خاصة ـ هو أقرب المذاهب الفكرية مسايرة للروح العلمي كما يفهمه العلماء الذين يخلقون لنا أسباب الحضارة في معاملهم ، فقد أخذت به أخذ الواثق بصدق دعواه ، وطفقت أنظر بمنظاره الى شتى الدراسات فأمحو منها ـ لنفسي ـ ما تقتضيني مبادىء المذهب أن أمحوه » . وهنا لا مناص من أن نسأل هذا السؤال : لم المنطق الوضعي بالذات يعد أقرب الفلسفات مسايرة للروح العلمي ؟ ان الجواب سيكون واضحا عندما ندرك سبب «علمية» الفلسفة الوضعية المنطقية . والجدير بالذكر ان المناطقة الوضعيين لا يكتفون باضفاء الطابع العلمي على فلسفتهم فحسب بل يعتبرون ظهور فلسفتهم « ثورة علمية » دكت الميتافيزيقيات السابقة دكا جذريا وأدت الى « انقلاب » لا نظير له في تاريخ الفكر الفلسفي الانساني . وفحوى هذه « الثورة العلمية » ان الفلسفة لم تعد تهتم لا بالانسان ولا بالعالم وانما بالتحليل المنطقي لاقوال العلماء وعبارات الناس في حياتهم اليومية وغدا الفلاسفة يستعملون رموزا دقيقة مماثلة لرموز العلماء .

وبعد أن تركت المنطقية الوضعية شؤون الانسان ومشكلاته التي لا عد لها ولا حصر في عالمنا هذا وأغفلت العالم الذي نعيش فيه ونتفاعل معه ونقوم بتغييره من أجل رفاه الانسان بالسيطرة على قوى الطبيعة واستغلالها لسعادة الانسانية ، يطلع علينا الدكتور زكي بقول نجد فيه الغرابة والاستهجان : « .. لعل أقرب الاتجاهات الفلسفية الى جانب العلم وجانب العقل من الحضارة الراهنة هو اتجاه الوضعية المنطقية ـ كما أطلق عليه عند أول ظهوره في « فينا » في العشرينات من هذا القرن ـ وهو نفسه اتجاه التجريبية العلمية ـ كما يطلق عليه عادة الان .. » (فلسفة وفن ، ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨) .

ومع أن هذه الفلسفة تعتمد العقل وتستند الى العلم ، كما يزعم مؤسسوها وأنصارها ، فانها لا تجد أتباعا لها لا في صفوة المثقفين ولا في أوساط المثقفين العاديين ناهيك عن جماهير الناس البسطاء في وطننا العربي . وقد اعترف المفكر المصري ، بحزن وكآبة ، عندما كتب : « ... واذا كانت هذه الدعوة العقلية الصارمة لم تجد في الغرب آذانا مصغية الا عند صفوة المتخصصين فهي عندنا لا أمل لها حتى عند هؤلاء الصفوة ، فكاتب هذه الاسطر من أشياعها ودعاتها ، لكنه يكاد يكون في الميدان وحيدا ، يتكلم لغير سامع ويكتب لغير قارىء ، لان الدعوة الى العقل الصرف لا تجد في أنفسنا صدى .. » . (فلسفة وفن ، ص ٢٤٨)

وهكذا نرى أن فلسفة الوضعية المنطقية لا تجد ، بتصريح الاستاذ الفاضل ، أشياعا وأتباعا لها ما عدا الدكتور زكي نفسه وبعض الافراد مع انها فلسفة العقل والعلم وعلى الرغم من جهوده الجبارة في قراءة المحاضرات وتأليف الكتب وكتابة المقالات للدعاية لمبادىء هذه الفلسفة على مدى نحو عقدين من السنين . فهو ، بدأب وحماس شديدين ، يدافع وينشر فلسفته . وكل ذلك عبث في عبث مع أنه يملك التأثير القوي بصفته أستاذا في جامعة القاهرة وعضوا في بعض هيئات تحرير المجلات المصرية بالاضافة الى أنه رئيس تحرير سابق لمجلة « الفكر المعاصر » . ان جهوده ومحاولاته لم تكلل بالنجاح المطلوب لان عدد انصار فلسفة الوضعية المنطقية لم يتعد بضعة افراد . لقد بقيت هذه الفلسفة ذات تأثير ضيق الحدود .

وبالرغم من أن الدكتور زكي يعتبر نفسه فيلسوفا علميا يستند الى العقل في تفكيره فانه لا يقدم للقراء تفسيرا علميا يتفق مع العقل لظاهرة عدم انتشار الوضعية المنطقية لا في أوساط المثقفين ولا في دوائر الجماهير . ومرد ذلك في نظري الى عدة أسباب أهمها عدم موافقتها لمجرى التطور الموضوعي ولانها لا تطرح ولا تحل القضايا والمشكلات التي يواجهها الشعب على طريق تطوره نحو مستقبل مزدهر وغد مشرق .

واذا كانت « المأساة » تتجسد في كون الوضعية المنطقية فلسفة علمية وعقلية فان السؤال التالي لا بد ان يتبادر الى الاذهان : ـ لماذا تجد مبادىء الاشتراكية العلمية وأفكارها صدى ودعما ليس لدى الدوائر الحاكمة في ج.ع.م بل وفي صفوف المثقفين الثوريين وأوساط العمال والفلاحين ؟ لا ريب في أن سبب الانتشار والتأييد يعود الى أن فلسفة الاشتراكية العلمية ليست فلسفة تأملية معلقة في الهواء وانما فلسفة متصلة اتصالا وثيقا بالواقع واهتمامات البشر . ولهذا السبب بالذات ليس من قبيل الصدفة انتقال اعداد غفيرة الى مواقع

(١) ديفد هيوم ، ١٩٥٨ ص ٩

الاشتراكية التي لا تستند الى الخرافات والاساطير وانما الى العقل والعلم .

ولعل القارىء سيسأل : اذا كانت الوضعية المنطقية غير منتشرة ذاك الانتشار الواسع الخطير فما العبرة من تصويب الرماح ضدها ؟ وهل هناك خوف من انتشارها بهذا القدر المحدود جدا ؟ ان السبب بسيط للغاية ونجده في كلمات الاستاذ محمود أمين العالم : « اذا كنا نثير اليوم قضية الفلسفة بنقد الوضعية المنطقية فذلك لما نجده في هذه المدرسة الفلسفية خاصة من معاداة صريحة للفلسفة والوعي النظري ولما نلمسه من سيادة هذه المدرسة الفلسفية في بعض أروقتنا الجامعية فضلا عن ادراكنا بأنها تعبر عن الجوانب المتخلفة في حياتنا الاجتماعية وعن القوى الرجعية في العالم » . (معارك فكرية ، ص ٢٣)

ولما كانت الوضعية المنطقية فلسفة متعددة الجوانب والاهتمامات لذا قررت أن أكرس المقال الاول لموضوع الفلسفة ومهامها عند الدكتور زكي على أمل أن أعالج الجوانب الاخرى في مناسبات لاحقة .

موضوع الفلسفة ومهامها

قبل كل شيء لا بد من الاشارة الى اهتمام الاستاذ زكي بموضوع الفلسفة ومهامها اهتماما شديدا ، مع أنه ينظر الى هذه المسائل بمنظار الوضعي المنطقي ويحلها حلا مثاليا ـ ذاتيا ومغايرا للروح العلمي الذي يدعو الى مراعاته والاخذ به. فموضوع الفلسفة الوحيد، في رأيه، هو التحليل المنطقي لعبارات العلماء وما يقوله الناس في الحياة اليومية المألوفة . ومن أقواله : « ودعوانا في هذا الكتاب هي أن الفلسفة تحسن صنعا لو عرفت على وجه التحديد والدقة ان مجالها هو التحليل والتحليل وحده .. » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١٦) . وفي مؤلف آخر يؤكد هذا الرأي بقوله : « .. لقد صح القول بأن الفلسفة لم تعد شيئا سوى المنطق التحليلي » . (برتراند راسل ، ص ٤٠)

وبناء على هذا النظر يتبادر الى الذهن أن الفلسفة ليس بمستطاعها أن تقدم لنا معلومات جديدة عن العالم بالاضافة الى انها لا تملك الحق في ذلك لانها تتعدى الحدود المعترف بها من قبل المناطقة الوضعيين وتخرج على وظيفتها المقررة . وبهذا الصدد ينقد الاستاذ الدكتور بوغومولوف الفهم الوضعي المنطقي لموضوع الفلسفة قائلا : « ان الفلسفة ليس بامكانها أن تحمل معلومات جديدة . فهي تملك فقط شأن توضيح ما يقوله العلم أو التجربة العادية . هذا هو الاستنتاج من فهم الوضعية الحديثة (أي الوضعية المنطقية) لموضوع الفلسفة ». (الفلسفة الانجلو ـ أميركية ، ١٩٦٤ ص ٢٧٩) .

ان الشغل الشاغل للفلسفة يجب ان يكون التحليل فقط نظرا لان الفيلسوف لا يملك الوسائل والادوات من أجل البحث والاستقصاء فضلا عن انه ليس ملزما باجراء التجارب والقيام بالمشاهدات والملاحظات لغرض الوصول الى أحكام أخبارية ازاء العالم . فهذا من شأن العلماء لا الفلاسفة . « ليس هناك من عالم الا عالم الواقع ـ يقول الدكتور زكي ـ وليس لاحد أن يتحدث عن العالم حديثا موضوعيا الا رجال العلوم المختلفة وللفلسفة أن تجيء بعد ذلك فتحلل وتوضح ، للعلم أن يقرر وللفلسفة أن توضح له ما يقرره .. » . (نحو فلسفة علمية ، ص ٨١) .

وهكذا نرى ان اهتمام « الفلسفة العلمية » يجب أن ينصب على تحليل عبارات العلوم والعلماء !.

ان الاستاذ زكي يسعى جاهدا لتحديد ميادين العلوم المادية التجريبية والفلسفة . وهذا أمر لازم وضروري اذ لا غنى عن التفريق بين مواضيع ومهام كل من هذه العلوم والفلسفة والا غدا من الصعب التمييز بين ميدان هذا العلم ومجال ذاك العلم . بيد أن المفكر العربي يقوم باجراء تحديد يفضي الى ذوبان الفلسفة باسم التحليل . فاعتبار التحليل المنطقي مسألة المسائل للفلسفة يعني تحويل الفلسفة الى منطق . والجدير بالملاحظة انه لا يخفي هذه النية ، فهو يقول بصراحة : « فليس موضوع البحث الان « أشياء » ولكنه « جمل » ، ليس موضوع البحث الآن هو « الكون » بل هو هذه العبارة المعينة أو تلك وما تحليلها وما مضمونها وما مكنونها ؟ بهذا يربط الفلاسفة أنفسهم بدنيا العلم ودنيا الحياة اليومية بدل أن يتعالوا على الدنيا على أساس انها باطلة بحثا عن عالم « حقيقي » وراء هذا العالم المحسوس ! وبهذا تصبح الفلسفة منطقا صرفا كما يقول برتراند رسل في محاضرته التي نشرها عام ١٩١٤ بعنوان « المنطق هو صميم الفلسفة » فصلا من كتابه « علمنا بالعالم الخارجي » » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١٨) . وفي مؤلفه « فلسفة وفن » ص ٢٧ يقول : « وبهذا تصبح الفلسفة هي التحليل المنطقي بدل أن يكون التحليل المنطقي جزءا من الفلسفة » .

ليس من شك في أن التحليل المنطقي ذو أهمية بالغة ودلالة كبرى . وكل فيلسوف ينكر هذا الامر يعد متخلفا جدا عن العصر الذي نعيش فيه سيما ان تطور العلوم القديمة وظهور علوم جديدة أديا الى توطيد مكانه وتثبيت مواقعه وأصبح أحد الادوات المعرفية اللازمة في بحثنا ومعرفتنا للعالم . وقد ازدادت دلالته على وجه الخصوص بفضل تطور المنطق الرياضي (الرمزي) والسيبرنطيقا والرياضة اللغوية وعلم الرموز وصنع الالات المنطقية . بيد أن اعتبار التحليل المنطقي الموضوع الوحيد للفلسفة وشغلها الشاغل يعني انتهاك حقوق الفلسفة الاخرى وتجريدها من النظر الشامل العام . وستصبح الفلسفة علما منطقيا رمزيا يستند الى المنطق الرياضي وحده نظرا لان علمية الفلسفة ، في نظر الدكتور زكي ، تتجسد في استخدام الفلسفة لرموز دقيقة تشبه دقة العلماء في استخدام الرموز . وبذلك يتحول منهج المنطق الصوري في مرحلته الرياضية (الرمزية) الى منهج رئيسي ، لدى المناطقة الوضعيين ، في حل القضايا الفلسفية وأقوال العلماء . ولا يفوتنا في هذا المقام ان نشير الى ان رد العلاقات المعقدة بين الموضوعات المختلفة الى علاقات ذات طابع كمي يفضي الى نظرة ضيقة وحيدة الجانب ويؤدي الى عدم اعتبار تشابك العلاقات التي لا يمكن ان تتسم بالكمية فقط . وفي هذا الصدد كتب أستاذ المنطق الدكتور غورسكي ما يلي : « ان استخدام مناهج المنطق الرياضي كميثودولوجيا وحيدة في تحليل العلوم كلها يعني رد العلاقات المعقدة كلها بين الموضوعات المعينة المختلفة نوعيا الى علاقات ذات طابع كمي غالبا أو ذات طابع أكثر بساطة » . (المثالية الذاتية المعاصرة ، ص ٢٣٣) .

ان اتفاقنا مع نقد الدكتور غورسكي للمنهج الرياضي المنطقي لا نود منه التقليل من شأن التحليل المنطقي في الفلسفة . فلا محيص لنا من استخدام المنطق الرمزي أثناء معالجة مسائل الفلسفة اذا رأينا ان البحث يستوجب هذا الاستخدام . غير أن اعتباره المنهج الرئيسي للفلسفة يشكل نقيصة الوضعيين المحدثين كلهم بما فيهم الدكتور زكي . فالتحليل المنطقي الذي يقف عند استعمال هذا المنهج ليس قادرا على تكوين تصور شامل ازاء بناء المعرفة العلمية على وجه العموم والمعرفة الفلسفية على وجه الخصوص نظرا لان نشاط التفكير البشري لا يمكن حصره في نطاق التحليل المنطقي فضلا عن ان المنهج المنطقي الرياضي لا يستطيع أن يتناول بالتحليل الا جزءا بسيطا جدا من العمليات الفكرية المنعكسة في دماغ الانسان .

ان مفكرنا العربي اذ يستخدم التحليل المنطقي انما يسعى للبرهنة على أن ما يسمى « بالمشكلات الفلسفية » تظهر بسبب وجود غموض وابهام في استعمال رموز العبارات . وقد كتب ما يلي : « اننا نحن التجريبيين العلميين لعلى يقين بأن ما قد جرى العرف على تسميته « بمشكلات فلسفية » ان هو الا غموض في استخدام الرموز اللفظية ، ولو استقام لهذه الرموز طريق استخدامها لتبخرت تلك المشكلات في الهواء وزالت .. » (نحو فلسفة علمية ، المقدمة ، ص ط) .

وهكذا فالمشكلات الفلسفية ما هي الا تطبيق غير صحيح للرموز . ويستنتج من ذلك أن تأملات الفلاسفة وجهودهم الفكرية في الماضي والحاضر (وفي المستقبل) عابثة ولا فائدة من الاطلاع عليها والقيام بتطويرها على الرغم من مساعيهم الحثيثة لطرح وحل المشكلات الفلسفية

على مدى اكثر من الفي سنة . فلو خمن الفلاسفة والمفكرون ان الامر لا يتجاوز الاستعمال الخاطىء للرموز واستخدموها بصورة صحيحة لزالت المشكلات الفلسفية واختفت بدورها الفلسفة من الوجود . والذي لا ريب فيه أن هذا الفهم للمشكلات الفلسفية خاطىء في أساسه . فالمسألة لا تنحطى عدم الوضوح في لغة الفلاسفة والمشكلات الفلسفية ما هي الا أمر يتعلق باللغة الرمزية ان صح هذا التعبير . « ان رجال التحليل في الفلسفة الحديثة لم يكادوا يتناولون بالتحليل مشكلات الفلسفة التقليدية حتى تبين لهم في وضوح ألا أشكال ، وان الامر كله غموض في لغة الفلاسفة ، هو الذي خيل لهم انهم ازاء مشكلات تريد الحل ولا حل هناك ، فهل النفس خالدة أم فانية ؟ هل يكون هذا العالم المحسوس قائما وحده أم ان وراءه عالما عقليا آخر ؟ هل الموجود الحقيقي هو الافراد الجزئية أم الحقائق الكلية التي تعبر عن نفسها في تلك الافراد ؟ وهكذا من أمثال هذه الاسئلة التي لم يزل الفلاسفة التأمليون يلقونها ويحاولون الجواب ولا جواب ، فيتناول فيلسوف التحليل هذه العبارات نفسها ليفض مغاليقها اللفظية واذا هي فارغة لا تنطوي على شيء واذا هذه المشكلات المزعومة الموهومة تذوب ثم تتبخر في الهواء وتختفي » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١١) .

ليس من الصعب على القارىء الذي ينعم النظر في هذا الاقتباس الطويل أن يستنتج منه أن الدكتور زكي لا يريد اعطاء جواب محدد يضعه في صف واحد مع المثاليين أو الماديين . وعلى كل حال فهو يقف في معسكر المثاليين مع انه لا يقول ذلك بصراحة . فاعتبار المشكلات الفلسفية مشكلات وهمية مزعومة يشهد على أن الوضعيين المناطقة بما فيهم الدكتور زكي يحيدون عن المسألة الاساسية في الفلسفة . تلك المسألة التي تكشف عن العلاقة بين الوجود والتفكير بتبيان أسبقية الوعي أو الوجود . انه لمن الخطأ الفاحش أن نزعم ان المشكلات الفلسفية برمتها « مشكلات لغوية خالصة » . فالممارسة الاجتماعية للانسانية تقود الى الفهم الواقعي العلمي للعلاقة بين الفلسفة واللغة والواقع . يقول الاستاذ نارسكي أحد كبار نقاد الوضعية القديمة والحديثة : « لو كان وجود العالم المادي خارجنا وخارج الوعي البشري « مشكلة لغوية » فقط لما كان من الممكن أن يحصل على تفسير مقنع لا لواقعة وحدة تجربتنا ووحدة المراحل المنسقة لتطور الظواهر ولا للتعاقب في العلم ولا لاختلاف رؤية الاحلام المبدئي عن الادراكات العادية للاشياء في خارجنا وكذلك تمييز الذات بصورة عامة من الوسط المحيط.

لقد برزت المشكلات الفلسفية من جراء متطلبات العلوم الطبيعية المتطورة والطبقات الاجتماعية المتصارعة . وهذا الحل أو ذاك لهذه المشكلات يؤثر في نهاية المطاف في النشاط العملي والعلمي والسياسي للناس » . (الوضعية المعاصرة ص ٨٢) .

ان الدكتور زكي اذ يطور آراءه يعتبر ان العلم يهتم بالمعرفة من حيث المضمون أو المادة بينما الفلسفة تعير أهمية الى الشكل أو الاطار الذي يتألف من ألفاظ لغوية تتشكل على هذا النحو أو ذاك لتكون هذه الفكرة أو تلك . ان العلم يتناول مضمون العبارة اللغوية أما الفلسفية فتعنى بطريقة بناء العبارات على أساس القواعد المنطقية العامة التي تسري على كل اللغات . « لو تناولت قضية علمية معينة وحللت عبارتها تحليلا يبرز خصائصها المنطقية فانت عندئذ لا تبحث في مادة ذلك العلم بل تبحث في منطقه ، والفلسفة عند جماعة فينا ومن يدور مدارهم هي منطق العلوم بهذا المعنى » . (نحو فلسفة علمية ص ٦٦) .

ان هدف الدكتور زكي منصب على البرهنة على أن الفلسفة علم غير مضموني وانها مجرد نشاط شكلي لا يهمه الا الاطار أو الصورة . فلو كان التحليل المنطقي لعبارة ما موجها أيضا نحو المضمون ومدى صحة انعكاس الواقع الموضوعي فيه لكان ذلك مقبولا ، بيد انه يرى في التحليل المنطقي ما لا يجب أن يكون عليه . وبذلك يصبح التحليل المنطقي تحليلا شكليا لا مضمونيا . « التحليل المنطقي لعبارة ما هو في حقيقة أمره شيء مستقل عن مضمون العبارة وفحواها ، اذ يتناول صورة التركيب وما فيها من علاقات ويفرغ من العبارة فحواها .. » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١٢) .

وعندما يتابع تحديد موضوع الفلسفة ومهامها ، يجعل اللغة وفي المقام الاول علاقة الرمز بأشياء ووقائع العالم الخارجي موضوع ما يسمى بالفلسفة التحليلية المعاصرة . وبهذا التحديد ينتقل مفكرنا العربي الى جانب الفلسفة التحليلية معتبرا اللغة موضوع الفلسفة لانها تعد « أداة علمية » . فان كانت الفلسفة تهتم ، في السابق ، باللغة من ناحية البناء والتركيب ، فالدكتور زكي اذ يطور فلسفته يرى ان « محور البحث الفلسفي عند جماعة فينا ومن جرى مجراهم ، هو اللغة دلالة وتركيبا ، فان كانت الدلالة هي هدف البحث ، حصروا انتباههم في علاقة التطابق بين الصورة اللغوية من جهة والمصور العيني من جهة أخرى » . (نحو فلسفة علمية ، ص ٦٦ ـ ٦٧) . ويسمي تعريف هذه العلاقة بين اللغة وعالم الاشياء السيمية » أي « علم السمات » . انه يظن أن معنى كلمة من الكلمات يتحدد بالاشارة ، قبل كل شيء ، الى الشيء الذي تعنيه الكلمة . ومن الملاحظ ان الاستاذ زكي لا يعترف بأن الكلمة عبارة عن تجريد وتعميم . فهو ينظر الى الكلمات والجمل واللغة على أساس انها رموز ذات معنى . ومن رأيه ان الرمز ليس شيئا فحسب بل المعنى كذلك . وبالتالي يمكن الحكم على انه لا يقر بأن المعنى ليس شيئا ، متجاهلا انه عبارة عن ما ينعكس في الرمز .

ان المفكر العربي يؤكد على ان « اللغة باعتبارها رموزا تشير الى عالم الاشياء هي وحدها المجال الذي تجول فيه الفلسفة بالمعنى الذي نريده لها ، ومن ثم نفهم ما يقال الان عن الفلسفة ـ على الاقل بالمعنى الذي نريده لها ـ انها علم « المعنى » » . (نحو فلسفة علمية ، ص ١١٧) . ولا يقف عند هذا الحد بل يظن ان مسألة المسائل بالنسبة لمعظم الفلاسفة في عصرنا هي استقصاء ودراسة « المعنى » . وهذا يعني انه يعتبر « علم السمات » ضربا جديدا من ضروب الوضعية الحديثة . ومن الحق ان نقول ان مفكرنا ينتقل من الاشادة بالتحليل المنطقي لصورة العبارات الخالصة صوب تحليلها من ناحية المعنى . ويتم هذا التحليل بالاشارة الى موضوع تجربتنا . أما ان كان الرمز لا يشير الى أي موضوع من موضوعات العالم الخارجي فلا بد أن يكون بلا معنى وذلك لان معنى الرمز مرتبط بالموضوع المرموز اليه . ونستخلص من ذلك ان معنى العبارة يتحدد بتلك التجارب الحسية التي تشير اليها العبارات . ان كل شيء يحصل على معنى من خلال وجود الانسان وادراكاته الحسية فقط . « أما نحن أصحاب المذهب التجريبي العلمي في الفلسفة فموقفنا صريح ، يقول القائل عبارته فنسأله : هل هي منصرفة الى شيء خارجي ؟ فان أجاب بالايجاب سألناه من فورنا : أين الخبرة الحسية التي تؤيد ذلك ؟ فاذا عجز عن أن يشير لنا الى كائنات حسية هي التي تنصرف اليها عبارته التي نطق بها حكمنا على عبارته هذه لا بالبطلان فحسب بل بخلوها من المعنى اذ « المعنى » هو بعينه الخبرات الحسية التي يرمز اليها الكلام الذي نزعم له ذلك المعنى » . (فلسفة وفن ، ص ٥٨) .

انه لمن غير الصعب أن ندرك ، من خلال هذا الاستشهاد ، الفهم الضيق لكل من المعنى والرمز . ففهمه يحمل طابعا مثاليا ـ ذاتيا نظرا لانه يربط وجود موجودات العالم الخارجي المشار اليها بالرموز بالتجارب الحسية للانسان . ان ما يود الدكتور زكي أن يقوله هو : لا وجود للموضوع بدون الذات . وهذا هو صميم الفلسفة المثالية ـ الذاتية .

وبعد هذا العرض لموضوع ومهام الفلسفة في مؤلفات الدكتور زكي أرى أنه لا مناص من القاء بعض الضوء على الجوانب الرئيسية في فهمنا المغاير لوجهة النظر الوضعية المنطقية فضلا عن النقد الذي وجهناه أثناء عرضنا لموقفه الفلسفي .

بادىء ذي بدء لا غنى عن القول ان لكل علم من العلوم ميدان نشاط يجول فيه . وما دامت الفلسفة علما قائما بذاته ومستقلا ، نسبيا ، عن غيره من العلوم المادية والانسانية ، فهي تتناول بالبحث ما يجري ويدور في مجال اختصاصها على أساس انها احدى صور الوعي الاجتماعي الانساني . وما من شك في أن كل شكل من أشكال الوعي الاجتماعي ـ

السياسة ، القانون ، الاخلاق ، الفن ، العلم ، الدين ، الفلسفة — يتسم بخصائص مميزة ويضع امامه مهام واهدافا مختلفة . وانطلاقا من ذلك : ما هي الفلسفة ؟ وما موضوعها ؟ وما هي المهام الملقاة على عاتقها ؟

ولكن قبل ان نجيب على هذه الاسئلة المطروحة ، نرى من الضروري تقديم لمحة تاريخية عن منشأ الفلسفة وزمن ظهورها تساعد في الاجابة على مثل هذه الاسئلة . ان الفلسفة لم تظهر مع بدء انبثاق المجتمع البشري نظرا لانها تمثل صورة عالية ورفيعة من صور وعي الانسان . ولما كان الوعي البشري بدائيا في مرحلته الاولى ، فانه لم يكن بمقدوره ان يبدع فلسفات على شكل نظم ومذاهب متكاملة ومتناسقة من ناحية منطقية مع ان التفكير الفلسفي الساذج كان من سمات الانسان البدائي الذي فكر في وجوده واصله وحياته ومماته الخ .. ولم يزل سائدا لدى الناس الذين لم يصلوا الى مستوى ثقافي يساعدهم على ابداء فلسفاتهم بصورة منطقية متسلسلة . كما ان الجهد الذهني لم يكن منفصلا عن العمل اليدوي لحاجة الناس الماسة لبذل قصارى جهودهم ومساعيهم من اجل الحصول على القوت اللازم للاستمرار في البقاء سيما وان الظروف آنذاك كانت قاسية جدا بحيث انها لم تسمح للانسان ان يكرس حتى ولو جزءا صغيرا من وقته ليتامل فلسفيا ولكي يفكر مليا في الوجود ومكان الانسان فيه ، الى غير ذلك من المسائل الفلسفية . مضافا الى ذلك عدم سماح الاحوال الاقتصادية بقيام طبقات تستغل بعضها البعض ليبقى ، للطبقة المستغلة ، متسع من الوقت تخصصه لا لغرض الحصول على القوت وانما لهدف التفكير فلسفيا والتامل في كل ما يثير التامل في الطبيعة والمجتمع وحياة الانسان . لقد كانت وسائل الانتاج في المجتمع البشري البدائي ملكا يخص الجميع دون استثناء وبذلك انتفى الاستغلال نهائيا . كما ان المستوى المنخفض جدا للانتاج لم يجعل ممكنا عيش طبقة من الناس على حساب الاخرى ناهيك ان جهود الجميع قاطبة لم تكن كافية لحياة الناس كلهم . وبانتقال المجتمع الى مرحلة عليا في تطوره ظهرت الفلسفة كصورة للوعي تناسب الطور الجديد . وغني عن القول ان المجتمع العبودي الذي تكون من طبقتي الارقاء ومالكي العبيد كان اول المجتمعات الصالحة لنشوء الفلسفة . والتاريخ يثبت ان ميلادها حدث في المجتمعات العبودية التي كانت سائدة آنذاك في الصين والهند ومصر وبابليون قبل نحو ٣٠ قرنا ومن ثم في اليونان والامبراطورية الرومانية. ان ارتفاع مستوى الانتاج وانقسام المجتمع الى طبقتين مستغلة ومستغلة افضيا الى انبثاق مقدمات للفلسفة خاصة وان العمل الفكري انفصل من اسار العمل اليدوي وغدا في مقدور الفئة المستغلة ان تفكر وتتامل فلسفيا . وهكذا برزت الحاجة الى الصياغة النظرية الفلسفية لمصالح الطبقات والفئات الاجتماعية المتصارعة . ويدل هذا على ان الفلسفة ليست صورة لمعرفة الواقع فقط بل عبارة عن ايديولوجية للدفاع عن مصالح طبقة من الطبقات . لذلك تعتبر كل فلسفة تعبر عن اهداف الطبقة الصاعدة فلسفة متفقة مع التطور الموضوعي للتاريخ البشري ومساعدة على تقدم الانسانية ، اما تلك التي تحمي وتدافع عن غايات الطبقة المحافظة التي انتهى دورها فهي تؤدي دورا يناقي السير التقدمي للبشرية . بيد ان هذا التفسير لا يعني ابدا ان الفلسفة متصلة بصورة مباشرة بالمصالح الاقتصادية لهذه الطبقة او تلك ولا يدلل على ان الدوافع الاقتصادية وحيدة في ظهور الفلسفة وخدمتها للتاخر ام للتقدم. فالاقتصاد يؤثر في نهاية المطاف فقط وعن طريق غير مرئية ببساطة ويسر . والتسلسل في التطور الفلسفي للبشرية جمعاء بغض النظر عن خدمة هذا النظام الفلسفي او ذاك للطبقة الصاعدة او الطبقة المحافظة خير شاهد على قولنا . فاستعراض تاريخ الفكر والتعاليم الفلسفية اثبت لنا ان هنالك فلسفة لاحقة واخرى سابقة بالاضافة الى الصلة الوثيقة القائمة بينهما . وكم من الفلاسفة من اعتبر فلسفته مبتكرة وفريدة في نوعها ولكن سرعان ما كشف التمحيص عن الصلة الموجودة مع من سبقها من الانظمة والمدارس الفلسفية . ذلك لان المصالح الاقتصادية لا تفعل فعلها الا في معالجة هذه المواد الفكرية والفلسفية وتطويرها وتحويرها لخدمة اغراض الطبقة المقصودة .

وبعد هذه النبذة نعود لنسال : ما موضوع الفلسفة وما مهامها ؟

ان مسالة العلاقة بين الوعي والمادة او التفكير والوجود اهم ما في موضوع الفلسفة . فهذه المسالة عبارة عن نقطة انطلاق تحدد المواقف الفكرية الاخرى وتعتبر قاعدة للبناء الفلسفي كله . والاجابة على هذا السؤال يفضي الى وقوف المفكر في صف المثاليين او في معسكر الواقعيين العلميين . فقولنا : المادة او الوجود يسبق الوعي او التفكير معناه تبني الواقعية في الفلسفة . اما قولنا : الوعي يسبق الوجود فمؤداه رفض الاتجاه الواقعي واقرار المثالية على صورة من صورها المعروفة . واعتبار الدكتور زكي مشكلات الفلسفة : هل النفس خالدة ام فانية ؟ وهل هذا العالم المحسوس وحده ام ان وراءه عالما آخر ؟ وغيرها من المشكلات مشكلات مزعومة موهومة لا تتجاوز مسالة العلاقة بين الوعي والوجود . ولا شك ان رفض الاجابة دليل على اللاادرية التي يتبناها الدكتور زكي وهي قريبة من المثالية قربا شديدا .

اما العلاقة بين الفلسفة والعلوم فلا تتجسد في التحليل المنطقي لاقوال العلماء على غرار ما يفكر المناطقة الوضعيون . فالفلسفة تتميز عن العلوم بالنظر الى الوجود من جهة قوانينه الاكثر عمومية وشمولا ومن جانب وحدته المادية التي تظهر في تنوع الظواهر والموجودات والعمليات المحيطة بنا . وفي احقاب زمنية طويلة كانت الفلسفة تضم في احضانها العلوم الاخرى نتيجة لعدم تطورها بصورة تسمح بانفصالها. وبناء على ذلك بحثت الفلسفة في مسائل غدت بعدئذ من اختصاص العلوم المنفصلة .

ان كل علم من العلوم يبحث في العالم الموضوعي والانسان من زاوية محددة ومن ناحية علاقاته وصلاته الخاصة التي لا تتخطى النطاق المعين . لذا كان موضوع كل علم يختلف عن الاخر مع ان بعض المواضيع غدت مشتركة بين عددمن العلوم وصار كل علم يعالجه بطريقته الخاصة. وان كان هذا العلم يتناول بالدرس والبحث هذه الخواص والعلاقات التي تتصف بها الوقائع والظواهر في عالمنا الخارجي او الداخلي وذاك العلم يبحث في صلات وقوانين جانب معين من جوانب الوجود المادي او البشري ، فالفلسفة لا تتدخل في شؤون الفيزياء ، مثلا ليغدو موضوعها موضوعا لها ولا تدس انفها في قوانين الكيمياء لتستحيل هدفا من أهداف الفلسفة . فموضوع الفلسفة يتمثل في القوانين والمقولات العامة التي تخضع لها ظاهرات وعمليات الوجود الطبيعي والبشري والفكر الانساني . وهي لا تبحث في قوانين هذه الظاهرة او تلك العملية فحسب بل تهتم بالقوانين التي تسري على جميع الظاهرات والموضوعات. ان اهتمامات الفلسفة والعلوم تكمل بعضها البعض وليس هناك تناقض بين ما تهتم به الفلسفة وما تبحث فيه العلوم . ان التناقض ينبثق عندما تريد الفلسفة ان تتحول الى « علم العلوم » او في الوقت الذي تسعى فيه العلوم الى تذويب الفلسفة في التحليل المنطقي . ولا شك في ان القوانين والمقولات العامة الشاملة عبارة عن انعكاس في ادمغة الناس للحركات الدائرة في الطبيعة والمجتمع والفكر الانساني . وهي تحمل طابعا موضوعيا مستقلا عن وجودنا وادراكنا لها .

ان هذه الاحكام لا تشير الى ان الصلة معدومة بين الفلسفة والعلوم ولا تدل على ان الفلسفة تقف فوق العلوم او تحتها . فالعلاقة ترتدي طابعا جدليا . فالفلسفة تغتني بمعطيات العلوم الطبيعية والانسانية وتقوم بتعميمها . هذا هو الشق الاول من المعادلة ، اما الشق الاخر فيظهر في استفادة العلوم من الفلسفة من الناحية الميثودولوجية نظرا لان الفلسفة تزود الناس ، وبخاصة العلماء ، بنظرة عامة شاملة الى الكون والمجتمع والانسان لا غنى عنها في اي ميدان من الميادين .

ان الفلسفة تمثل منهجا علميا يهتدى به في دراسة ظواهر الطبيعة والمجتمع وعمليات الفكر البشري ، وهي لا يمكن ان تؤدي « دورا توضيحيا » فقط لما « يقرره العلم والعلماء » .

موسكو — أحمد ماضي